

البوسطة

لن أكتب كثيرًا عن الدكتور طارق البكري، فهو شخصية معروفة أنه أستاذ جامعي، وأديب رائع، كتب القصة للكبار وللأطفال، فاكسب شهرة واسعة، وإن كان تميزه واضحًا في الكتابة للأطفال، حيث ترجمت بعض أعماله، التي أثرت المكتبة العربية، إلى أكثر من لغة أجنبية.

لكنني سأكتب في هذه العجالة عن روايته الأخيرة للناشئة، والتي تحمل عنوان "البوسطة"، ووصلتني عبر البريد الإلكتروني.

المقصود بـ(البوسطة)، كما جاء في الرواية، هو الباص الذي يقل طلاب المدارس، والبوسطة أعتقد أنها مأخوذة من الكلمة الإنجليزية (Post)، والتي تعني النقل، ومنها مكتب البريد الذي ينقل الرسائل وغيرها، مع أن (البوسطة) مصطلح سيء في الثقافة الشعبية الفلسطينية،

وهو السيارة المغلقة التي تنقل المعتقلين والأسرى بين المعتقلات والسجون.

قسّم الدكتور البكري روايته إلى ثماني عشرة لوحة، ليروي لنا حكاية بطولة تتوزع على أكثر من شخص، أو ساهم فيها أكثر من شخص؛ حكاية كفاح تحمل أكثر من قيمة تربوية، وقيم تعليمية، يستمدّها الكبار من سيرة الآباء والأجداد، وإن كانت البطولة الرئيسة فيها للسارد، الذي تكلم في الرواية بلغة الـ (أنا).

تبدأ الرواية بلوحة: "بيتنا الجميل"، حيث يصف الطفل بيتهم الريفي الجميل الذي تحيط به حديقة جميلة، مزروع فيها ورود وأشجار وبعض الخضروات للاستعمال البيتي، لكن اللافت فيها هو شجرة التفاح التي زرعتها الجدّة لأب، ومدى حرص الوالد على هذه الشجرة، التي شاخت بعد أن أعطت ثمارها اللذيذة لسنوات طويلة، ومع أن الشلل بدأ ينخر أغصانها، إلا أن الأب رفض التفريط بها، أو نقلها من مكانها إلى مكان خلف البيت مثلاً، كما اقترح الأحفاد، وبقيت مكانها إلى أن "جاءت عاصفة خفيفة وقلعتها من جذورها الميتة".

وإذا كان بيت الإنسان بمثابة جنته في الحياة الدنيا، وأن الموت نتيجة حتمية لكل المخلوقات الحيّة، إلا أن الرسالة التربوية للناشئة سامية جدّاً، وهي ضرورة رعاية الآباء والأجداد في شيخوختهم حتى يتوفاهم الله

خالقهم، كما أنها تحمل أكثر من رسالة تعليمية، تتمثل في زراعة حديقة المنزل، والأرض المحيطة به، كما هي البيوت في القرى، وفي ذلك تجميل للطبيعة، ودعم للاقتصاد المنزلي، لن يكون على حساب العمل للكبار، أو الدراسة للأطفال والطلاب.

أما اللوحة الثانية: "فراشات الحديقة"، فهي تتغنى بجمال الطبيعة، وبجمال هذه الحشرة متعددة الألوان، والتي تضيف جمالاً خلاباً على الطبيعة في فصل الربيع، وعلى حدائق المنازل، لكنها فقدت رونقها، وقوتها، وجمالها، عندما "حبسها" الطفل الراوي في غرفته، ولم تستعد عافيتها إلا بعد أن أطلق سراحها، وفي هذه اللوحة دعوة للحرية.

اللوحة الثالثة: "مناسبة سعيدة"، والمناسبة هي مرور 15 عاماً على زواج الوالدين، وهي مناسبة يشارك فيها الزوجان والأبناء، وربما بعض الأهل والأصدقاء المقربين، وفيها تذكير للأبناء - خصوصاً الأطفال منهم - بأن للآخرين، أيضاً، مناسباتهم التي علينا أن نحترمها، وقد تكون لنا علاقة مباشرة بهذه المناسبات، كزواج الوالدين مثلاً، فعلى أن نشاركهم بها.

اللوحة الرابعة: "العم جميل"، وهو الرجل الذي يعتني بحديقة المنزل، والذي يعتبر واحداً من أبناء الأسرة، وحتى الكلب يتصرف هو الآخر كواحد من أبناء الأسرة، وفي هذه اللوحة عودة إلى نفور الأطفال

من المدرسة عند ذهابهم إليها للمرة الأولى، ولكسر هذا النفور، فإن الأهل زودوا المعلمة بسيارة (دمية) لتقدمها هدية لابنهم الطفل دون علمه، وكأنها هدية من المعلمة، غير أن الأخ الأصغر كشف هذا السر، ما جعل شقيقه التلميذ ينفر من اللعبة، ويستعملها بقسوة حتى حطمها لأنه يريد هدية من المعلمة (أذكر أن هذا المضمون مرّ معي في قصة أخرى للمؤلف نفسه، وتكراره لا ينتقص من قيمة العمل الإبداعي، بل قد يكون ضروريًا لتكريس فهمه، والعمل به)، وفي هذه اللوحة تعليم للأطفال بأن لا يخافوا من المدرسة، وعليهم أن يقبلوا عليها طواعية، وضرورة احترام الكبير، والرفق بالحيوان، كما أن فيها توجيهها غير مباشر للأهل وللمدرسة في كيفية استقطاب الأطفال الجدد للمدرسة.

وفي اللوحات (5+6+7+8) تعريف للتلاميذ على أجواء المدرسة، كالتعرف إلى زملاء جدد، وبناء صداقات جديدة، ووجود نشاطات وألعاب ككرة القدم، والكشافة التي تربي روح الجندية في الطلاب، والتعرف إلى علم الدولة وكيفية رفعه وتحيته، واكتشاف الحب الطفلي الأول، وكلّها أمور تربوية وتعليمية مهمة على بساطتها.

أما بقية اللوحات، فتروي لنا قصة العم أبي زكي الذي عاش يتيماً، وكيف جاهد في الحياة إلى أن اشترى الباص (البوسطة)، بعد أن عمل بمباركة وتوجيه شيخ القرية في "كافيتيريا" لأحد أبناء قريته في العاصمة

لمدة سنة، ودفع ربع ثمن الباص، والباقي بالتقسيط لمدة خمس سنوات، وهو لا يزال لا يعلم شيئاً عن الجندي المجهول الذي دفع المبلغ الأكبر من ثمن الباص، وهو والدته التي عملت في الحقول عند الآخرين بعد وفاة زوجها لتعيل أطفالها الأيتام، وكأني بالكاتب، في نهاية الرواية، يعيدنا إلى بدايتها، ففي اللوحة الأولى التفاحة التي حاول أحفاد من زرعها الاستعجال باقتلاعها عندما شاخت، ولم تعد مثمرة، وهنا النهاية في الأم التي شقيت، وتعبت، وحافظت، وربّت، وعلمت، وبنّت، وبسرية تامة، دون أن يكون لها أيّ ذكر، فهل تستحق الرعاية أم لا؟!

وفي هذه اللوحات، حثّ على الجِد، والاجتهاد، والمثابرة، والاستفادة من تجارب الكبار، والاستعانة بنصائح وتوجيهات ذوي الرأي والخبرة، والاستعانة بقدرات وخبرات الخيرين من الأقارب والأصدقاء، وأن الهجرة من الريف إلى المدينة، أو إلى بلدان أخرى، يجب أن تكون مؤقتة لجلب المال الذي يتعسر الحصول عليه في مكان السكن، ثم العودة إلى مسقط الرأس للبناء، ومواصلة الحياة الكريمة. وكذلك فيها تحذير من الانجرار خلف الإشاعة، وعدم التحقق من الأمور؛ لأن في ذلك ظلمًا للآخرين.

الأسلوب

لجأ الكاتب إلى أسلوب القص السلس، من خلال تجزئة الرواية إلى أقاصيص يمكن قراءة كل منها منفردة، لتتحد مشكلة رواية مشوّقة، وذات قيمٍ عالية. ولغة الكاتب بليغة مناسبة، وإن لجأ في البداية إلى وصف البيت بطريقة مدهشة، حتى خلته يصف قصرًا، وليس بيتًا قرويًا. والرواية يطغى عليها عنصر التشويق، الذي يجبر القارئ على متابعتها، ففيها تسلية للقارئ، وفيها تعليم وتربية جاء بين السطور ومن خلال المعاني، وهذا هو الإبداع.

(ج.س)